أبو الحسن علي الحسني الندوي

دور المسلمين القيادي والاجتهادي



ابو الحسن علي الحسني الندوي

دور المسلمين القيادي والاجتهادي في الهند

الناشر :
الأمانة العامة لندوة العلماء
لكهنؤ (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم



مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

بين يدى الرسالة

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد الأنبياء و المرسلين محمد و على آله و أصحابه و على من تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

و بعد - فهذه الرسالة هى فى الواقع كلمة تحيــة و ترحيب افتتح بها سماحة أستاذنا الكبير و مربينا الجليل مولانا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى المهرجان التعليمى لندوة العلماء ، و هو الذى تولى إقامته بمناسبة مرور ٨٥ سنة على هذه المؤسسة الاسلامية الكبرى وذلك فى ٢٥ - ٢٨ شوال عام ١٣٩٥هـ المصادف ٣١/ أكتوبر و ١/ ٢/ ٣/ نوفمبر عام ١٩٧٥م ، و تلك هى الكلمة الضافية التى رحب بها أعضاء الوفود الموقرين والمندوبين الذين حضروا المهرجان و مثلوا المراكز الاسلامية الحساسة فى العالم الاسلامى .

و قد كان ذلك المهرجان التعليمي خطوة جريئــة نحو بعث تعليمي تربوي جديد و نواة كبيرة في مجال النظام التعليمي الموحد الذي يتوخى الجمع بين النظامين التعليميين المتعــارضين و يهدف بناء نظام تعليمي جديد يحوز حسناتهما ، فيتكفل تخريج الأجيــال المطلوبة اليوم في كل مجال من مجالات الخدمة والدعوة والتوجيه ، و ينال هذا النظام الجديد للتعليم والتربية القبول و التنفيذ في جميع أوساط التعليم و الجامعات الكبرى و المدارس و المعــاهد في الأقطار الاسلامية .

و لا شك فان ندوة العلماء قامت - عن طريق هــذا المهرجان - باعداد التربة الصالحة لزرع فكرة هــذا التطوير الصالح في المناهج التعليمية و تغييرها بمــا هو الأصلح الأقوم ، و أوفق للظروف المتغيرة ، و إنها أكدت لممثلي التعليم و التربية و المسؤلين عنها في الدول الاسلامية أن هذه الحاجة المهمة لا تحتمل تأخير يوم واحد ، و إذا لم نولها اليوم من الأهمية و الاهتمام ما هو حقها فلن نعتبر مخلصين لأنفسنا و لا لأجيالنا ولا لربنا أيضاً ، بل سنكون مسؤلين أمام الضمير قبل كل شئ ما دمنا قادرين على أن نقوم بواجبنا نحو ذلك ثم لم نقم .

و إن هذه الرسالة القيمة تلق ضوءاً لامعاً على تاريخ الهنــد العلمي و الفكري و أدوار التعليم و التربية و تجــاربهما التي مرت بها هذه البلاد عبر تاريخها الاسلامي الطويل ، وهي عصارة دراسة تاريخية طويلة وخلاصة أسفار ضخمة لا تتيسر إلا بعد تنقيب في الكتب و مراجع التاريخ .

وهي تتحدث عن الموضوع في ضوء التحليل العلمي و الدراسة التاريخية و تكشف الستر عن كثير من الخبايا التي لا يطلع عليها إلا من تعمق في دراسة تاريخ هذه البلاد الاسلامي و ما قام به المسلمون فيها من نشاط علمي و فكري و سياسي ، و ما أدوه من خدمات جليلة في حقل العلوم الاسلامية و الدراسات الشرعيــة ، و البحوث الاكاديمية ، و الجهود التربوية ، والنضال السياسي .

و تتحدث بصفة خاصة عن الحركة العلمية و الدينية والأدبية الخصبة التي اشتهرت بها الهند ، وخاصة علوم الحديث و الفقــه و التاريخ و السيرة ، والأصول ، وعن الدور الطليعي الذي قاده علماء هذه البلاد في الكفاح ضــد الاستعمار الانجليزي ، فجمعوا بذلك بين الحسنيين و حملوا على عواتقهم مسئولية العلم و الدعوة و القيادة و التوجيه .

وتتحدث عن حركة ندوة العلماء التى مثلت أروع فصل من فصول تاريخ الوعى الاسلامى ، و القيادة الاسلامية ، و الفكرة العلمية فى فجر القرن الرابع عشر الهجرى و أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، الفترة العصيبة التى عاشها الشعب المسلم فى هـذه البلاد ، وس فيها بالفجوة الحائلة التى نشأت بين علماء الدين وطبقة المثقفين بالثقافة الغربية ، و انقطع الأمل بالجمع بين هذين النوعين من أهل العلم و الثقافة ، و فى مثل هذه الساعة العصيبة الدقيقـة كانت تجربة ندوة العلماء ، رحمة من الله على أهل هذه البلاد ، وغيثاً لأرض العلم التى غطاها الجدب والجفاف ، وهنالك مثلت ندوة العلما من أهم أدوار هذه البلاد العلمية و الفكرية و أنشأت القنطرة بين علمـاء الدين و المثقفين العصريين ، و قامت بالتجربة الفريدة التى سجلها تاريخ هذه البلاد العلمى بمداد من نور .

وسيجد القارىء فى هذه الرسالة إشارات واضحة صريحة لهذه القصة العلمية و الفكرية التى مثلها رجالات هـذه البلاد العباقرة و أبناؤها النجباء ، فى جميع مجالات الحيوية والنشاط ، ومن شاء التفصيل فليرجع إلى كتاب « الثقافة الاسلامية فى الهند » و « الهند فى العهد الاسلامى » للعلامة الشريف عبد الحى الحسنى ـ رحمه الله ـ

مدير ندوة العلمـاء الأسبق و والد أستاذنا الكبير مولانا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى وصاحب « نزهة الخواطر و بهجة المسامع والنواظر» والمؤلفات القيمة الأخرى .

أرجو أن تنال هذه الرسالة اهتمام المعنيين بتاريخ هذه البلاد العلمى و الدينى و الفكرى و الأدبى و نشاط أبنائها فى مجـالات القيادة العلمية و السياسية و فى حقل الدعوة الاسلاميـة ، و نشر الفكر الاسلامى ، وهى عصارة آلاف الصفحات وملخص دراسات طويلات .

و على ذلك فيسرنا أن نعيد نشر هذه الرسالة ، و نقدمها إلى أصحاب الدراسات و الاختصاصات ، عسى أن يجدوا فيها زاداً لرحلتهم العلمية ، و وقوداً لنشاطهم وعملهم ، والله من وراء القصد و هو يهدى السبيل .

سعيد الأعظمى
كلية اللغة العربية وآدابها والمعهد العالى للدعوة والفكر الاسلامى
و رئيس تحرير مجلة « البعث الاسلامى »
بندوة العلماء لكهنؤ (الهند)
١٥/ ربيع الأول ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، و خاتم النبيين محمد النبي الأمين ، و آله و أصحابه الطاهرين الطيبين ، و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين ، من خلفاء الرسل و أئمة الدين ، الذين ينفون عنه تحريف الغالين ، و انتحال المبطلين ، و تأويل الجاهلين .

أما بعـــد ! فحضرة الرئيس الجليل و السادة الأجلاء ، و الضيوف الأعزاء !

أحييكم — أصالة منى و نيـــابة عن زملائى و عن مسلمى الهند و علمائهم — بتحية الاسلام و بتحية العلم ، تحية الزملاء الصغار للزملاء الكبار ، و تحيـــة الرفاق للرفاق ، فكلنا نسير فى ركب الاسلام السيار ، و فى موكب العلوم الاسلامية الحافل ،

إذا فرقت بيننا الأستاذية و التلمذ ، والأصالة والتطفل ، و القيادة و التبعية ، فقد جمعنا ظل الاسلام الوارف ، و وسعتنا وشيجة العلم الجامعة ، و كلنا أبناء الاسلام ، و زرع النبوة ، و غرس القرآن ، و تلاميذ مدرسة الايمان .

أرحب بكم أيها السادة على أرض قامت عليها تجربة من نوع فريد فى تاريخ الديانات و الحضارات و الثقافات ، نجحت نجاحاً منقطع النظير ، تجربة دخول دين بواكبه العلم و الحضارة ومنهج خاص للحياة ، لا تربطها به لغة و لا آداب ولا حضارة ، و لا قومية و لا عنصرية ، و لا عادات و لا طبائع ، فبرهنت هذه التجربة على القوة المودعة فى طبيعة الاسلام ، و قدرته على إشعال المواهب ، و تفتيق القرائح ، و إثارة الدفائن ، واستخدام الطاقات البشرية فى صالح الانسانية ، وعلى استجابة الفطرة البشرية السليمة له ، كأنما كانت منه على موعد و اشتياق ، و معه على تفاهم و اتفاق ، و برهنت كذلك على خصب التربة ، و كرم المنبت ، و على أن العلوم الاسلامية تورق و تثمر فى كل بيئة و مناخ ، و قد تكون أكثر ازدهاراً ، وأفضل ثماراً إذا غرست فى أرض بكر ، وتناولها عمل التلقيح الحكيم ، و « التأبير » السليم ،

وعلى أن الشعور بالغربة، والبعد عن مصدر هذه الهداية، ومنطلق هذه القافلة، و اليأس من وصول الميرة والمدد، و الشعور بقلة العدد والعدد والاعتماد على نصر الله وحده، ثم الاعتماد على الرسالة التي تحملها هذه الجالية، و صلاحيتها للبقاء، ونفعها للانسانية المعذبة، و الشعور بكونها على ثغرة بعيدة من ثغور الاسلام، كلفها الله حراستها و الذود عنها، يثير في هذه الجالية قوة تصنع العجائب و تأتي بالمعجزات، و تتغلب على كل مقاومة ومحاربة، ومؤامرة و مماكسة، وتكذب تجارب الأمم، وتبطل المنطق المادي الذي يؤمن بالرياضيات، و فلسفة الأعداد و العدد. و خضوع النتائج للمقدمات و المسببات للأسباب.

تدخل هذه الجالية في البلاد غريبة، فلا تلبث أن تتخذها داراً وقراراً، يحبها أبناؤها وتحبهم، و يرون فيها الأخ الكريم، و الأب الرحيم، و الأستاذ الشفيق، والحاكم الرفيق، والصانع الحاذق، والاداري الحازم، وتصب على هذه التربة أفضل ما عندها من طاقات و كفايات، و علوم و تجارب، و تعاليم وآداب، و إبداع و ابتكار، و نشاط و حماس، و قوة عمل و قوة إرادة، و حسن تنظيم و قدرة إدارة، وتلتقي الفروسية التركية،

و قوة الارادة المغولية، والنخوة الأفغانية، و الطبيعة الايرانية المرحة القلقة، الهائمة بالجمال والخيال، ورقة العجم وخفة روحهم مع جدية العرب و سلامة ذوقهم، مع طبيعة البلاد و أبنائها الرقيقة الوادعة، الولوع بالفلسفة و التصوف، يسيطر على جميع هذه العناصر و العوامل عقيدة التوحيد النقية، و تعاليم الشريعة الاسلامية السمحة، و تصهرها في بوتقتها. فتنشأ من كل ذلك حضارة جديدة تستحق أن تسمى « الحضارة الاسلامية الهندية ».

و قامت في الهند مدرسة حضارية فكرية علمية، ذات شخصية خاصة، و طابع خاص، أنجبت عدداً كبيراً من النوابغ، وأئمة الفنون الاسلامية، و أصحاب الابداع و الابتكار، و الأصالة العلمية، كانوا أصحاب مدارس خاصة، وفاتحي آفاق جديدة، ليس في العلوم الدينية كالتفسير و الحديث، والفقه والعقائد، فحسب. بل في علوم اللغة والآداب العربية. أقر لهم علماء العرب بالامامة و الزعامة فيها. و عدت كتبهم من المراجع الرئيسية في هذه العلوم، و بعضها فريد لا نظير له في المكتبة الاسلامية العالمية (١)، و مدت هذه المدرسة الحركة العلمية و التأليفية في

(١) اقرأ للتفصيل كتاب كاتب هذه السطور « المسلمون في الهند »، و لتفصيل ✱

العالم الاسلامى و العربى التى أصابها الفتور ، و غشيها الاعياء الفكرى فى بعض الفترات بعد القرن الثامن الهجرى ، بدم جديد و نشاط جديد ، و أصبحت معقلا لبعض العلوم الاسلامية — بعد الزحف التتارى — و صارت أكبر مركز لعلم الحديث الشريف فى الزمن الأخير ، ومصدر إشعاع وتصدير بعد ما كانت مركز استفادة و استيراد ، و نبغ فيها أكبر علماء هذا الفن ، وألف فيها أحسن الكتب فى هذا الموضوع ، وقاد بعض رجالها فى مختلف العهود حركات الاصلاح و التجديد ، و البعث الجديد ، سمع صداها العالى ، و رؤيت آثارها الطيبة المباركة ، فى نواحى العالم الاسلامى البعيدة .

ثم أراد الله أن تخوض هذه البلاد أكبر معركة حضارية ، ثقافية فكرية ، شهدها التاريخ المعاصر ، وأن تواجه أعنف صراع بين المبادىء و العقائد ، و القيم و المفاهيم ، و المعايير والموازين ، معركة قامت بين الحضارة الغربية و الفلسفة الغربية ، و بين الحضارة الاسلامية و الفلسفة الاسلامية ، و صراع بين الفكرة

★ أكبر كتاب « الثقافة الاسلامية فى الهند » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى ، طبع المجمع العلمى العربى بدمشق .

الاسلامية ، و الفكرة الغربية بأوسع معانيهما و أدقها ، فكانت معركة حامية دامية ، و صراعاً عنيفاً قاسياً ، فقد واجه الشعب الهندى المسلم المثخن بالجراح ، المصاب بدهشة الفتح ، الحضارة الغربية الفتية ، الدافقة بالحيوية و النشاط وجهاً لوجه ، لا حاجز بينهما و لا فجوة ، و دام فى ربوع الهند الحكم الانجليزى الثائر الموتور الحانق على هذا الشعب الذى تسلم منه مفاتيح البلاد ، و ذاق من جرائه الثورة العارمة والحرب المسعورة قرناً كاملا ، يحمل الروح الصليبية مع الروح الاستعمارية ، يرى فى الشعب المسلم منافسه الحقيق الدائم فى كل زمان و مكان ، ويرى فى الاسلام معسكراً يوازى معسكره على طول الخط ، و كل يدعى أنه يقود الحياة و يصوغ المجتمع ، و يشرع و يسن القوانين ، و يملأ الفراغ الذى لا بد أن يملأ ، فكان نصيب الشعب المسلم من لهيب هذه المعركة و خسائرها و غراماتها أكثر من نصيب أى شعب آخر ، و كان أكثر حساسية و أكثر حساباً لهذه المعركة من جميع الشعوب بطبيعة الحال ، و قد سجل التاريخ الأمين المنصف ، أنه كان أكثر صموداً ، و أكثر احتفاظاً بشخصيته و معنوياته ، و أكثر تمرداً و استعصاءاً على حركة الابادة الدقيقة الشاملة من

أكثر الشعوب الاسلامية التى اكتوت بنار الاستعمار الأجنبي و وقعت تحت نيره .

هذا عدا حركة « التنصير » التى يسميها أصحابها حركة « التبشير » التى واجهها المسلمون فى الهند على إثر استقرار الحكم الانجليزى ، و قد كادت تكتسح البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكانت مسلحة بأقوى الأسلحة ، و أشدها تأثيراً فى الشعب المفتوح المهان ، و تتمتع بحماية الدولة التى تعتبر هذه البلاد منحة من « السيد المسيح » (على نبينا و عليه الصلاة و السلام) و السيطرة على البلاد ، فرصة سانحة للدعوة إلى الدين المسيحى . ترافق حركة التنصير حملة تشكيكية قوية ، تشكيك فى كل مايتصل بالدين الاسلامى من شريعة و حضارة . و ثقافة و تاريخ ، و قد قاوم علماء المسلمين كلتا الحركتين بقوة زائدة ، وقدرة فائقة ، وآثروا سياسة الهجوم والنقد العلمى على سياسة الدفاع والتماس العذر ، فانحسرت موجات الدعوة التبشيرية ، و الحركة التشكيكية ، و تراجعت إلى الوراء ، و ازداد المسلمون إيماناً وثقة بدينهم ، واعتزازاً بحضارتهم و ثقافتهم ، و اعتداداً بشخصيتهم و تاريخهم .

و أم عدد كبير من الشباب المسلمين مراكز الثقافة الغربية فى كبرى العواصم الأوربية ، و تخصصوا فى علومها العصرية ، و حذقوا اللغة الانجليزية كأبنائها ، و كان منهم أدباء ، وكتاب ، و مؤلفون ، و معلمون ، و إداريون ، شهد ببراعتهم و تفوقهم علماء الغرب ، و لكن كان منهم أكبر نقدة ، وأقوى ثائرين على الفلسفة الغربية المادية ، و الفكرة الغربية المتطرفة المتعصبة للمسيحية أحياناً ، و المتحللة الملحدة أحياناً كثيرة ، و تناولوا الحضارة الغربية ، و الفلسفات الحديثة بنقد علمى عميق ، و تشريح جرىء دقيق ، و تهكم لاذع رشيق ، كل على حسب أسلوبه الخاص ، و ظروفه الخاصة ، و صدرت من أقلامهم أقوى كتابات فى عرض الاسلام كدين كامل شامل ، و مواجهة الحضارة الغربية فى أسلوب ملئ بالثقة و الاعتزاز ، بعيد عن كل تأويل و اعتذار ، و أنشأوا جبهة علمية قوية أمام دعوة الفكر الغربية و الحضارية ، شعارها إنكار إمامة الغرب ، و عصمته من كل خطأ ، و براءته من كل ضعف ، و الافتخار بالاسلام كرسالة إنسانية عالمية خالدة ، والايمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كخاتم الرسل ، و منير السبل ، و إمام الكل .

ثم واجه الشعب المسلم الهندي تجربة جديدة ، و دخل في فترة كبيرة الأهمية ، هي تجربة ممارسة الحياة الحرة الاستقلالية ، التي كان من أول دعاتها ، و من أكبر أبطالها ، و المضحين في سبيلها ، و التي يساهم فيها كأبناء البلاد ، و أفراد الشعب المواطن المناضل ، الحر الأبي الكريم ، فترة انتقال من الحكم الأجنبي إلى الحكم الذاتي ، تسن فيه قوانين جديدة ، ويصاغ فيه المجتمع صوغاً جديداً ، و يوضع للتربية و التعليم نظام جديد ، وتتحكم في حياة البلاد اتجاهات طائفية أحياناً ، عاطفية وأعصابية أخرى ، والمسلمون في كل هذه الظروف أقلية عددية ، و طائفة متخلفة ، قد حرص الحكم الانجليزي على إضعافها وتأخيرها في ميدان الحياة ، تحيط بها هالات من رواسب الماضي ، و من شبهات هي منها بريئة كل البراءة ، و من تصرفات هي منها بعيدة كل البعد ، و كل ذلك يضخم مسئوليتها ، و يضعف موقفها ، و يحرج مركزها ، و هي مع كل ذلك مصممة على البقاء في هذه البلاد ، مع الاحتفاظ التام بشعائر دينها ، وخصائص حضارتها وشخصيتها ، لا تتخلى عن شئ من ذلك . فكانت محنة ذكاء و محنة وفاء ، محنة عقيدة جازمة ، و محنة وطنية صادقة ، محنة الشخصية القوية العبقرية ، و محنـة

الروح الايجابيـة البناءة ، محنة يقل نظيرها في التاريخ الاسلامي القديم ، فلا تمكن الاستنارة به في ذلك . ويندر الحديث عنه في كتب الفقه و الفتاوى ، و متى وجد ستون مليوناً أو أكثر ، من المسلمين في أكثرية غير المسلمين ، في بلد يحكمه البرلمان ، و يسيطر عليه الدستور ، واتخذ العلمانية له شعاراً ؟ فلا سبيل إذاً في تخطيط الحياة اللائقة العملية الخاضعة لتعاليم الاسلام و الحقائق الراهنة ، إلا الأصول الاسلامية الحكيمة ، الخالدة العالمية ، و الذكاء الألمعي ، و الشخصية القوية ، والعزم الصادق ، والايمان الراسخ ، و إيثار حياة الشرف و الكرامـة على حياة اللؤم و المهانة ، و الاستشراف لتبوء مكان القيادة الخلقيـة الذي لا يزال منصبها شاغراً ، والظهور على منصة هذه البلاد و مسرحها ، كداع مخلص رباني ، و قائد خلقي إنساني ، مجرد عن كل شهوة وأنانية ، و أغراض فردية و جماعية ، ينقذ هذه البلاد من الهوة السحيقة العميقة من الانحطاط الخلقي ، و تقديس المادة و التهالك عليها و الانتهازية ، و نسيان فاطر الكون ، وذلك هو الطريق الوحيد الذي يرفع هـذا الشعب من مستواه الشعبي العام إلى مستوى الرائد ، و القائد الرفيع السامق .

وقد عرف الشعب المسلم الهندى فى تاريخه الطويل — ولا أزكى على الله أحداً، إنما هو تحديث بالنعمة، وتقرير الواقع التاريخى — بقوة عاطفته الدينية، وحبه العميق، المتغلغل فى الأحشاء، لرسول الله ﷺ، و ارتباطه بعهد الاسلام و مركـــزه. و ذلك الذى حماه من أن يذوب و يفقد شخصيته، كما كان الشأن مع الشعوب التى دخلت فى هذه البلاد فى فترات مختلفة، وأبدى اهتمامه الشديد بقضايا الاسلام والمسلمين فى الزمن الأخير، قد تبنى قضية الدفاع عن الخلافة العثمانيـــة بحماس منقطع النظير، و لا تزال «حركة الخلافة» التى كان لها فضل كبير فى إثارة الوعى السياسى والوطنى فى شبه القارة الهندية، كبرى حركات الهند الشعبية، و موضع دهشة المستعمرين، و موضوع المؤرخين و المؤلفين، و كذلك أبدى اهتمامه الشديد بقضية فلسطين، و المسجد الأقصى المبارك و كان مرهف الحس، رقيق الشعور، شديد الانفعـالية فى كل ما يقلق المسلمين فى مشارق الأرض و مغاربها.

و قد تجلت قوة عاطفته الاسلامية، و شدة تمسكه بالدين، وتعاليمه وثقافته، فى شبكة المدارس الدينية والكتاتيب الاسلامية، الدقيقة الواسعة التى قلما خلت منها قرية كبيرة فضلا عن المـــدن

و الأمصار، و قد أسسها المسلمون فى طول الهند و عرضها، بعد استقرار الحكم الانجليزى، و تملكه لزمام التربية و التعليم فى القطر الهندى، و هى تتجاوز المئات، وتبلغ إلى الألوف، ومنها عدد كبير يسمى بالمدارس العربية لعنايتها الزائدة بالعلوم الاسلامية التى ألفت كتبها فى اللغة العربية، و عنايتها بالقرآن و الحـــديث اللذين هما بلغة العرب، و هى تعنى غالباً بتدريس الصحاح الستة من أولها إلى آخرها، و بتدريس الجامع الصحيح للبخارى بصفة خاصة، و تدريس صحيح مسلم، و جامع الترمـــذى، و سنن أبى داؤد بصفة عامــــة، و تكاد تكون هـــذه المدارس كلها شعبية يمولها و يكفلها الشعب المسلم، ويعتبر ذلك سعادة وعبادة، و يتنافس فيه، و ذلك سر وجود هذا العدد الكبير من العلماء المحتسبين، و الدعاة المتطوعين، و المعلمين المخلصين فى كل زمان، الذين يعيشون على الكفاف، و بلغة من العيش يتبلغون بها فى نشر العلم، و الدعوة إلى الله، و تعليم الناس دينهم.

و من سمات العلماء و المتخرجين فى هذه المدارس الدينيـــة البارزة، أنهم كانوا فى طليعة المنـــاضلين لتحرير البلاد و إجلاء «المستعمرين»، وفى مركز القيادة فى هذه الحركة الشعبية القوية،

و منهم انبثقت فكرة النضال ضد الاحتلال فى الحقيقة ، و قد قاد كثير منهم حركات المقاومة الفعالة و الثورات المسلحة بمقـــدرة و شجاعة ، فنهم من قتل شهيداً ، ومنهم من شنق ، و منهم من نفى إلى جزائر اندمان أو إلى منفى جزيرة مالطة ، و منهم من قضى شطراً من حياته فى السجون و المعتقلات فى داخل البلاد ، وتاريخ حركة التحرير والاستقلال مقترن بتاريخ العلماء والشخصيات الدينية فى الهند متداخل فيه ، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

و من سماتهم البارزة أنهم قادوا الحركة الأدبية الانشائية فى شبه القارة الهندية ، و كانوا من الدعائم القوية السامقة التى قام عليها قصر الأدب الرفيع و النثر الفنى بعد ثورة ١٨٥٧ ، و كان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة ، لا يزال لها أنصار و أتباع و مقلدون ، و كان كثير منهم رائد نشاط جـــديد فى الانشاء و التحرير و النقد و تاريخ الأدب و الشعر ، و لاتزال مؤلفاتهم هى المرجع الأصيل و العمدة فى هذا الموضوع ، فلم يكن فى الهند ذلك الفصام النكـــد بين علوم الدين و الأدب العصرى و لغة البلاد ، و لم تكن تلك الفجوة التى وقعت فى بعض البلاد بين علماء الدين و الشادين بالأدب و الشعر ، و الهائمين بهما ،

الفجوة التى جنت على الدين و الأدب فى وقت واحد .

وأصبح الشعب المسلم الهندى اليوم مكتفياً بالاسلام ، يستمد قوته و صموده من منابع الاسلام الأصيلة ، كالكتاب و السنة ، وسلوك الرعيل الأول من المسلمين ، وجهاده و وفائه ، وبطولاته ، و سيرة السلف الصالحين الذين أحسنوا فقه الاسلام ، و أساغوا تعاليمه ، و استقاموا على الطريقة ، قد ربط عقيدته و مصيره و سلوكه بالاسلام ، و لم يربطه بالمسلمين ، عرباً كانوا أو عجماً ، فليس « إمعة » يقول إن آمن الناس آمنا ، وإن كفروا كفرنا ، و إن استقاموا استقمنا ، و إن انحرفوا انحرفنا ، و لا يشترط لوفائه للاسلام ، وفاء شعب من الشعوب الاسلامية للاسلام ، بل يرى ذلك لزاماً عليه و شكراً لنعمة الايمان التى لا نعمـــة أعظم منها ، وهو يدعو الله أن يبقى متمسكاً بالجامعة الاسلامية ، معتزاً بحضارة الاسلام و فلسفته ، متمسكاً بالدين الاسلامى كدين كامل يقود الحياة كلها و الأزمنة و المجتمعات كلها ، حين تؤمن شعوب كثيرة بقومياتها و حضاراتها البائدة ، و فلسفات عتيقة و حديثة ، منافية للاسلام أومنافسة له ، ويدعو الله جاهداً مخلصاً أن يلهم الثبات على المبادىء ، والقيم ، و المثل العليا ، مهما كانت قيمته فى الحياة

المادية و الفرص المواتية ، حتى يستطيع أن يخاطب ربه وينشد .

فليتك تحلو و الحياة مريرة
و ليتك ترضى و الأنام غضاب
و ليت الذى بينى و بينك عامر
و بينى و بين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين
و كل الذى فوق التراب تراب

لذلك كله — أيها السادة — كانت هذه الأرض جديرة كل الجدارة بأن تلتقى عليها هذه الصفوة المختارة ، من علماء الاسلام ، و قادة الفكر ، و أقطاب التربية و التعليم ، ليطلعوا على مدى النجاح الذى حققه هذا الشعب المحاط بالمحن و المشكلات — التى قلما أحيط بها شعب من الشعوب الاسلامية — فى الاحتفاظ بشخصيته ، وأداء رسالته ، وإثبات جدارته ، ويطلعوا على المسافة التى لا تزال أمامه ، و هو يطلب من إخوانه ، فى العالم الاسلامى و العربى ، التوجيه الرشيد ، و الرأى السديد .

و أرحب بكم ثانية فى مدينة لكهنؤ التى كانت تلو دهلى — عاصمة القطر الهندى — فى خصب التربة ، وحضانة العلم والعلماء ،

و قد آلت إليها زعامة الحضارة ، و الآداب ، واللغة ، و انتهت إليها رئاسة التدريس و التأليف فى العهد الأخير ، ونبغ فيها علماء و مؤلفون فاقوا أقرانهم فى التفنن فى العلوم والآداب ، و كثرة التأليف و قوة التدريس ، و انفجرت منها عيون العلم فأروت القريب و البعيد ، و فيها بلغ منهاج الدرس القديم طوره الأخير من التنقيح و التهذيب ، و الزيادة و التكميل ، فسمى « الدرس النظامى » ، و سيطر على الأوساط العلمية التعليمية فى شبه القارة الهندية ، و فى أفغانستان و تركستان ، و خدم فيها القرآن حفظاً و تجويداً ، و نشراً وتعليماً ، فى العهد الأخير ، خدمة لا يوجد لها نظير فى كثير من المدن الاسلامية .

« وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

و أرحب بكم ثالثة — أيها السادة — فى هذه المؤسسة التى تمثل فصلا من أروع فصول تاريخ الوعى الاسلامى ، و القيادة الاسلامية ، والفكرة العلمية ، فهنا تجسم الشعور بالواقع المرير الذى كان يعيشه المسلمون — ليس فى شبه القارة الهندية فحسب بل فى العالم الاسلامى — فى فجر القرن الرابع عشر الهجرى ، و أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، من تمزق الشمل ، وتشتت الفكر ،

و ضعف الثقة بصلاحية الرسالة التي أكرمهم الله بها لمسايرة الزمن فضلا عن قيادة الركب البشري ، و الحسبة على العالم ، و صلاحية شريعتهم السماوية لحل المعضلات ، و الارشاد في النوازل و القضايا الجديدة ، و صلاحية علومهم الاسلامية للبقاء و الازدهار ، والنمو و التوسع ، و توزع بين طبقتين متناكرتين متنافرتين أحياناً ، ومتنافستين ومتناحرتين أحياناً كثيرة ، طبقة علماء الدين المتخرجين في المدارس الدينية على النمط القديم ، و طبقة المثقفين بالثقافة الغربية ، المتعلمين في الكليات و الجامعات المدنية ، لا تزال الجفوة بينهما تشتد و تمتد ، و لا تزال الفجوة بينهما تتسع و تعمق على مر الأيام ، و القنطرة التي تصل بينهما مفقودة أو مكسورة ، و ما أشق الطبقتين من أمة إذا احتاجتا في اللقاء و التعاون إلى جسر يصل بينهما ، أو ترجمان يترجم لهما ، وما أشق الأمة بهما ، و توزع كذلك بين الطوائف الاسلامية ، و المذاهب الفقهية ، ينظر كل منها إلى الآخر نظرة ازدراء و احتقار ، ونظرة خوف و إشفاق ، و المناظرات والمطارحات بينها قائمة على قدم وساق ، قد تتحول إلى مضاربات و إهانات، و محاكمات و مخاصمات ، وقد تجر إلى تضليل و تفسيق ، بل إلى تكفير أحياناً كثيرة ، والمناهج

الدراسية قد ختم عليها بالختم الأخير لا تقبل زيادة و لا نقصاً ، و قد غشيت الأوساط العلمية غاشية من العزلة الفكرية ، فلا تفتح نافذة على ماجد في العالم الحديث من علوم و أفكار ، و بحوث و دراسات ، و لا تتصل بالحياة السريعة الصاخبة إلا عن طريق السياسة أو التبعية ، و هنا أفلت منها زمام القيادة و التوجيه ، و الاشراف على المجتمع الاسلامي ، و الوصاية عليه ، و صيانته من الغزوات الفكرية و الغارات الصليبية ، و الانحرافات الخلقية ، و وقعت الطبقات المثقفة تحت رحمة دعاة التغريب ، والردة الفكرية و الحضارية من المسلمين القوميين و غيرهم .

و في هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، و في هذا الجو الغائم القاتم، التقت (سنة ١٣١١هـ الموافق ١٨٩٢م) مجموعة من أهل الفراسة الايمانية ، و الشعور المرهف ، و التألم بواقع المسلمين و مستقبل علماء الدين والعلوم الاسلامية ، بل بمستقبل هذا الدين في هذه القارة التي سقيت بأزكى دماء المسلمين ، و غذيت بأذكى عقول علماء الدين ، و سايرت ركب العلم والحضارة الاسلامية ، بل وقادته أحياناً ، و التقى أهل العقول بأهل القلوب . و كبار علماء الدين بخيار المثقفين المدنيين ، و فقهاء المذهب الحنفي بزعماء

أهل الحديث و الأثر ، و الزهاد المتبتلون الذين آثروا العزلة و عكفوا على العبادة ، بوجهاء البلد و أعيانه ، و كبار الحقوقيين و رجال التعليم ، فأسسوا جمعية سموها « ندوة العلماء » لأنها نبعت من فكرتهم ، وتأسست على دعوتهم ، و هم الموجهون لها والمشرفون عليها ، وبدأت كفاحها في جمع شمل المسلمين ، وتوحيد كلمتهم ، و تنسيق جهودهم في إنهاض المسلمين ، و محاربة الأخلاق الفاسدة ، و التقاليد الجاهلية ، و العادات القبيحة المضرة ، وجمع العلماء من مختلف المذاهب الفقهية ، و الطوائف الاسلامية السنية على منصة واحدة للاهتمام بأمر المسلمين ، و إصلاح مناهج التعليم الديني وتطويرها وتكييفها مع الزمن ، في نطاق المبادىء الاسلامية ومقاصد الشريعة الاسلامية ورفع مستوى العلماء وتوسيع آفاق فكرهم ومعلوماتهم ، وإعداد العلماء الذين يتمتعون بثقة كلتا الطبقتين ـ القديمة والحديثة ـ وتقديرهما ، و يأخذون مكانهم الطبيعي في قيادة المسلمين الدينية ، و الفكرية و العلمية الذي فقدوه من زمان بضعفهم في العلوم الدينية ، و بعدهم عن الحياة .

و نادوا باعطاء القرآن الكريم ـ متناً و تفسيراً ـ حقه من العناية و الدراسة و التمييز بين العلوم الآلية و العالية ، والوسائل

و المقاصد ، و تقديم كتب المتقدمين المتذوقين للدين و العلم أصالة على كتب المتأخرين ، و العناية بتعليم العلم أكثر من العناية بتدريس الكتاب ، و نادوا باحلال اللغة العربية و آدابها محلها اللائق في المناهج الدراسية ، و المقررات المدرسية ، فقد كانت بلغت منتهى الضعف في الزمن الأخير ، و وضعت في هامش المناهج والنشاط العامي التعليمي ، وتعليم اللغة العربية كلغة حية راقية ، نابضة بالحياة و القوة ، مرنة تساير متطلبات العصر ، و حاجة الدعوة و الدعاة ، حتى يستطيع أبناء هذه الدار أن يتذوقوا جمال القرآن و إعجازه ، و فصاحة الحديث النبوي و قوته ، ويخاطبوا أبناء العرب في لغتهم ، و أساليب كلامهم ، و يقاوموا الفتن العصرية و الدعوات المضللة ، و كانت فكرة سابقة للزمن الذي لم تحدث فيه وسائل الاتصال ، و لم تسنح فيه فرص اللقاء التي حدثت في هذه العقود الأخيرة ، حين نالت البلاد الاسلامية و العربية الاستقلال ، و عمت الاجتماعات و اللقاءات على الصعيد الدولي ، فكان كل ذلك دليلا على بعد نظر هؤلاء العلماء ، ودعوا إلى ضم بعض العلوم الحديثة النافعة التي لا يسع العالم جهلها و دراسة اللغة الرسمية السائدة إلى مناهج التعليم .

و أسسوا لتحقيق هذه المطالب و الغايات مدرسة نموذجية

سنة ١٣١٦ﻫ ١٨٩٨م فى مدينة لكهنؤ ، سموها « دارالعلوم ندوة العلماء » . و توسعت و اشتهرت حتى غطى اسمها فى كثير من الأحيان اسم المؤسسة الأم ومصدرها ، و تقرؤن قصة هذه الجمعية و ما مرت به من أدوار و مراحل ، و قصة هذه الدار التى نلتقى فى رحابها وما قطعته من أشواط مشروحة مفصلة فى الكتب

و الرسائل التى نشرتها ندوة العلماء و أبناء دار العلوم التابعة لها و ضمتها مكتبات الهند و دور كتبها .

فى رحاب هذه الدار العلمية ، وفى مركز هذه المؤسسة التى هى مدرسة فكرية شاملة ، و حركة إصلاحية توجيهية ، نرحب بكم أيها السادة ، ونحييكم بتحية الاسلام والعلم فى هذا الملتقى الكريم ، و المشهد العظيم ، الذى ستظل أخباره و مشاهده تذكر وتشكر ، و تنقل و تروى ، و الذى يمثل بحول الله تعالى ، وتوفيقه العالم الاسلامى الواسع هذا التمثيل الجامع الرائع الذى قلما شهدته هذه البلاد فى الماضى القريب .

و سيشترك فى رواية هذه القصة الجميلة الرائعة و نقلها إلى الأجيال القادمة ، رواة صادقون من الأحياء ، و شهود عادلون من الأعضاء . فالعين عن قرة ، والكف عن صلة

والقلب عن جابر ، والسمع عن حسن

